

((التجديد العصري من غير ثورة)) (*)

تجربة لبنانية

تأليف ايليا اديب سالم

هذا كتاب اسمه اضخم من حجمه لا من محتواه ومادته ، فمحتواه واف ومادته مركزة . قامت بنشره جامعة انديانا ، في سلسلة مركز بحوث تطور العلاقات الدولية ، وقد استطاع المؤلف في كتاب عدته مائة واربع وسبعون صفحة من المقطع المتوسط ان يعالج العوامل التاريخية المؤدية الى التجديد العصري وبخاصة العوامل التي برزت بعد استقلال لبنان ويستعرض المجتمع الفريد المؤلف من مختلف الاديان والمذاهب والشيع والاحزاب ومحاولة التجديد العصري بسياسة عدم التدخل والتقييد ، وهو بتصويره للتطور الحضاري والتجديدي في لبنان من غير انقلابات او ثورات دامية يحاول ان يوميء الى امكان الدخول في روح العصر وثقافته من دون حاجة لسفك دماء او اطاحة بنظام حكم ، والمشكلة التي تجابه لبنان في نظره هي مشكلة الحفاظ على الحرية السياسية في مجتمع متعدد الالوان الجنسية والدينية وتصبه موارده لمنفعة الفئات الموزعة والمتخلفة اقتصاديا . وقد استطاع لبنان ان ينجح في هذا المضمار نجاحا غير منكر ولا مجعود ، ويرى الاستاذ اديب سالم ان معظم زعماء لبنان وقادته قد درسوا في مدارس فرنسية وثقّفوا بالثقافة الفرنسية اما في لبنان ذاته اوفي فرنسا .

ومنذ احرز لبنان استقلاله لم يحاول المسؤولون اجراء احصاء عام للسكان خشية ان تكون نتائج الاحصاء مثارا للنقاش حول ترتيب التشكيلات السياسية التي يقوم عليها لبنان في الوقت الحاضر ، وتدل تخمينات 1969 ان نفوس لبنان ثلاثة ملايين باستثناء اللاجئين الفلسطينيين ، وفيه اعلى كثافة سكانية اذ تبلغ 268 للكيلومتر المربع الواحد ، وحوالي نصف السكان دون سن العشرين وهي ظاهرة عامة في الشرق العربي ومن احدى مشكلاته ، اذ تصيف تبعات تعليمية واقتصادية جسيمة على كاهل المجتمع ، فتحول دون تطوره بالسرعة المنشودة ، ويكاد تعدد الزوجات يكون معدوما بين مسلمي لبنان . واكثر الشعوب العربية انتشارا خارج الوطن العربي هم اللبنانيون ، فتحو من مليوني لبناني عربي يقطنون في بلاد اجنبية وهم يساهمون بصورة مباشرة في اثراء وتمدين لبنان باستمرار ، ويقوم ثلث هؤلاء المهاجرين في الولايات المتحدة ، واكثر من الثلث في اميركا اللاتينية وما تبقى منهم موزع بين افريقيا واستراليا ونيوزيلندا واوروبا ، ويمود الكثيرون من هؤلاء ، لا معظمهم كما يزعم المؤلف ، الى بلادهم بعد ان يحصلوا على رؤوس اموال كافية ليستقلوها في بلادهم ، فيثرى اقدمهم بعد ان كان فقيرا ، وقد يثرى اللبناني دون ان يهاجر بفضل اقربائه المهاجرين الذين يبعثون اليه بالمعونات المالية .

ويكاد لبنان يكون نسيج وحده في اشياء كثيرة ، فقد خلق لنفسه تركيبا سياسيا خاصا بوسعه ان يفسح مجالا للتغيير وان يدخل التجديد التطوري المعتدل والاصلاحات المعتدلة التي لا تتم بالنظر في بحث لا

(*) Modernization Without Revolution . Lebanon's Experience . By Elie Adib Salem . Indiana University Press . Bloomington & London .

تزلزل اسس الكيان السياسي الذي يسيطر عليه الزعماء والنواب الخاصة التي لها مصلحة في التجديد العصري بدرجاته متباينة ، وفي رأي المؤلف ان مصلحة الزعماء في ذلك براغماتية اي وفق المذهب العملي او اللزاعي الذي يقيس الامور حسب نتائجها العملية فعليهم ما داموا يفتون البقاء في القمة ان يبدؤا شيئا من التلطف للترضية قدر الامكان والحاجة ، ولا سيما فيما يتعلق بالمشقيين او بمن يتوقع منهم القيام بحركات تهدف الى تغيير الاوضاع .

اعتقد ان تخصيص هذه السياسة بلبنان تجن على الواقع ، اذ تكاد تكون في كل مكان وزمان . فقد روي ان احد الاعراب اعترض على رسول الله (ص) في حصته من الفئام قائلا : ما انصفت يا رسول الله ، فاجابه محمد (ص) بكل ما عرف عنه من حلم واتزان وحب للعدالة والشورى او ما يسمونه اليوم بالديموقراطية : « ويحك ان لم انصف فمن ينصف ؟ » ثم التفت الى الامام علي (رض) قائلا : « يا علي ، افطع لسانه » فشهروا سيفه ، فقال له الرسول ما لهذا اردت ، زد في عطائه ليسد عوزه .

وباغتناد الاستاذ المؤلف انه اذا لم تحدث ازمة سياسية تحتاج الشرق الاوسط برمته بما فيه لبنان فتشنت المكاسب التي احرزها خلال القرنين الاخيرين بالمحاولات الفردية الخاصة وبالمساعدة الحكومية المحدودة فبوسع التطور العصري في المستقبل ان يستمر بخطى ثابتة متصاعدة ، غير ان بمقدور العملية ان تزيد في تعجيلها واسراعها باصلاحات واسعة النطاق ضمن مفهوم التكوين السياسي الحالي والنظام الاداري الحالي القائم .

ويضيف الاستاذ اديب سالم : اما اذا حاولنا ان نغير الهيكل السياسي والاداري جنريا فكاننا بذلك نفتح صندوق بانديرا الاسطوري الذي لا تعرف قوى الخير او الشر التي ستنتقل منه ، والى ذلك فاننا لا نستطيع ان اتبنا ببديل يبرر مثل هذه المغامرة .

ان ما يفهمه القراءونا اقدمهم ان الاستاذ الكاتب يقصد بالتجديد العصري في لبنان جميع مرافق الحياة وليست السياسة بمعزل عنها ، فقد اخذ الهيكل العام للبنان بزاد مرونة وتمتلا مع السياسة العربية العامة في الايام الاخيرة مع التفتح والتحرر جهد الامكان من الطائفة التي كانت اخذت بخناقها في فترة من فترات حياته السياسية ، الا ان المؤلف لا يتطرق الى شيء من ذلك ، ولعل الكتاب الذي وصلنا مؤخرا حاملا تاريخ 1973 لم يكتب في ضوء التطورات البشيرة بالخير في لبنان ، وان الفقرتين الاخيرتين من الكتاب هما بحاجة الى مزيد من الابضاح اذ لا يمكننا ان نتصور انسانا سويا ينمو لهما ودما وطولا وعرضا ويبقى هيكله العظمي على تحو ما كان عليه يوم ولدته امه . ومن يستطيع ان يزعم ان اي نظام في العالم هو خير الانظمة ولا يحتاج الى تطور ولو كان بطيئا ومن غير ثورة ؟

لقد حاولت ان ازيل شيئا من غموض النص الانكليزي جهد الامكان بان اقرا ما بين السطور كما يقولون ولا ادري ما اذا كان التوفيق قد حالني في محاولتي هذه ام لا ، فالذي اعلمه من قراءاتي المترابطة وتبني للانباء العربية والعالمية ان الشقيقة العريضة لبنان اخذت بالاتجاه صوب ترجيح الكفاءة الفردية على اعتبارات الفئة او الطائفة التي ينتمي اليها صاحبها .

انا لا اريد ان اقل من قيمة الكتاب الذي بين يدي فقد قرأته قراءة مستمتع مستفيد ، فقد كان المؤلف موفقا في منهج بحثه الموزع على ستة فصول وان كان متمسبا في طريقته الطريفة في الجمع بين الهوامش والصادر على صعيد واحد، في فصل اضافي في آخر الكتاب، وان المؤلف ليها على صبره وجلده وجمعه للكثير من الإحصائيات

والجداول وكذلك الهيكل الايضاحي التسلسل للدولسة والوزارات والديوائر والمجالس المرتبطة بها في الصفحتين ٧٨ و ٧٩ وارتباط مختلف الهيئات المتفرعة من وزارة التخطيط العام في الصفحة ١١٢ .

وكنتم اود عنعنا اشار الى المنتديات المنتفذة في لبنان والمؤثرة في تطوره وتجده الا يقذف بالنودة اللبنانية التي اسسها ميشيل اسمر في فصل الملاحظات في اخر الكتاب ، وانما يدرجها في صلسب الكتاب ، فانها باعترافه هو من اهم النوادي اللبنانية التي تنعم الى حد ما دعمه ماليا من قبل الحكومة اللبنانية وقد زودت النودة المذكورة المفكرين اللبنانيين لفترة تنوف على المقدين بمجال رحب واسع لتحليل المجتمع اللبناني وضع اسس نماذج ومخططات لتطوره ، وقد اصدرت العديد من الكتب والمنشورات في مختلف مظاهر التجديد العمري للبنان ، ولا سيما كتاب رنيه حبشي : « حضارتنا على المشرق » المطبوع ببيروت سنة ١٩٦٠ وسلسلة المحاضرات المتعلقة بمظاهر لبنان الادارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، المطبوعة سنة ١٩٦٥ بعنوان (لبنان) ، كما ان بعض الجداول والاحصائيات المهمة موضعها في متن الكتاب لا الهوامش المحشورة بعضها فوق بعض في ختام الكتاب ، ولا سيما اذا كان جدول احصائيهما كنسبة قراء الصحف في الاقطار المختلفة ، فقد ذكر انها ٥.٦ بالالف في الاتحاد السوفياتي وهي الاولى في العالم في هذا المضمار و٢٢٦ بالالف في الولايات المتحدة ومرتبته بين قراء الصحف ١٢ اما لبنان فالنسبة فيه ٩٧ بالالف ومرتبته ٤١ ومن الطريف ان نذكر ان النسبة في مصر ٢٠ بالالف وفي الاردن ١٢٨ بالالف وفي فولتا العليا ١٠ بالالف وانا عاتب عليه لانه اهمل العراق فسي هذه المقارنة مع ان نسبة قراء الصحف والكتب والمجلات فيه عالية اذ يكاد يتهم معظم ما تصدره لبنان ومصر معا ، مع ذلك فقد استترك فذكر العراق في جدول مقارنة توزيع الاطباء بين مختلف الاقطار ، ولكيما يفيد القاري فائدة تامة من هذا السفر الجديد فانا ناصحه بان يلقى نظرة وان كانت عجل على فصل الملاحظات الاخير في الكتاب قبل ان يشرع بقراءته والا فسيضطر لقراءته مرتين على نحو ما فعلت انا .

د . صفاء خلوصي اكسفورد



دموع السقف الحجري

مجموعة قصص بقلم وديع اسمندر

منشورات الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين

بعد ان انهيت مطالعتي للديقة لمجموعة وديع اسمندر القصصية الجديدة ، والتي صدرت عن الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين خلصت الى نتيجة مؤكدة مؤداها ، ان المؤلف الذي يعتبر الان من ابرز الوجوه في عالم القصة القصيرة السورية ، لم يقدم لنا في مجموعته هذه « دموع السقف الحجري » سوى شخصيات مازومة ، في تصرفاتها وافعالها واحوالها ، ومبتورة ، في الوقت عينه ، عن اسباب ودوافع وعوامل ازمتهما الكامنة ، بكليتها ، وان بطريقة مباشرة او ملتوية ، في مجمل علاقاتها واورامها الاجتماعية ، اي ان الكاتب لم يقم بالبحث عن جذور ازمات شخصياته ، ولم يجهت نفسه بسبر تفاصيل هذه الاوساع والخلالات في نوات شخصياته . ومن هنا ولدت هذه

الشخصيات ، بالاساس ، وكانها دعي لتعب ادوارها على خشبة مسرح العرائس ، وتحركها خيوط غير منظورة معلقة بيدي الكاتب ، وحسبما شاء صانعها ، فلا روح ولا تطور عضوية ولا تماسك ، وان كانت ايضا لا تفعل شيئا سوى انها تمثل الفصل الاخير من مسرحية طويلة ، سبقته عدة فصول لها اهمية بالغة في التمهيد امام وعي القاري وماذا رآه لكيفية عملية النضج التي قادت الى هذه الخاتمة الحتمية التسي صورها المؤلف ، ولقد انعكس هذا البتر والفصل للشخصيات ، من مكوناتها الاجتماعية ، بالتالي على المعمار الفني للقصص ، فاستطقت الكلمات اسقاطا على شفاه الإبطل ، كما فقدت محورها واثرها النفسي ، وتراخت التنايعات والمنولوجات الداخلية ، على الرغم من قوة وشراسة الازمات التي تصف بتلك الشخصيات ، وهذا ما جعل الحدث يتجدد في لوحات تجريدية ليس لها ارضية او خلفية يستشف منها القاري مدلولات يرمي اليها الكاتب .

ان هذا يلقينا في مشكلة اكبر ويضعا امام سؤال تولد في الفترة الاخيرة ، من بعد نشر عدة مجموعات لقاصين شبان : لماذا هذه الموجة من الكتاب الشبان الذين يحذفون مكونات شخصياتهم الاجتماعية ، النفسانية ، ويقدمونها وكأنها معتلة وطائفة في الهواء ؟ لدينا شواهد كثيرة ، والجواب يحتاج الى دراسة مطولة ولكن للثقل النبعة الاولى على التعب الذي يصيب هؤلاء الشبان ويعجزهم عن متابعة تنمية شخصياتهم ، وهذا نابع من تفهم الحار على الانتساج والنشر السريع ، بدون ان يعطوا للمقومات الفنية والمقدمات الضرورية التي تفزز وتخصب المضمون حقها التام .

ونستعرض الان بعض شخصيات وديع اسمندر ومواقفها التي تبدو مرتجلة للاسباب التي اشرنا اليها ، على الرغم من مقدرة الكاتب على خلق التوتر النفسي الظاهري في اعماله القصصية .

في قصته الافتتاحية « المشرحة » يعرض الكاتب امامنا شخصية مريضة لطيب حرمته جمعية الاطباء من ممارسة عمله . اما لماذا هذا الحرمان ، فان القاص لا يلمح لنا ابدا ، ونرى الطبيب يعرض كفته بممارسة شذوذه مع جثث موتى يسرقهم له خادمه ، ونتحسس ان ازمة الطبيب وغرابة اطواره غير معلومة الاسباب ، ولا تقنعنا بضرورتها ، الا ان هذه الازمة تنفلقم حتى تصل الى حد مجامعة الوتي والتلذذ بتقطيع اجسادهم بعدها ، حتى يحصل الطبيب يوما على جثة تشبه امرأة رفضته كزوج ، وعندما يبدأ بهداعية الجثة كمادته ، يراها تقف وتمشي لتذهب الى الشباك ، والمشرط ما زال مفروسا في صدرها ... وهكذا تنتهي القصة وهولها لا يتجاوز عدة صفحات من القطع الصغير ، واذا كانت مهمة الناقد تشریح جثمان القصة ، لمعرفة عللها الخفية التي تدور حولها العلاقات ، فاننا لا يمكن ان نمسك بدافع هذه الشخصية ، لان الكاتب فصل الراس عن الجسد ، واخفى الجسد مع علمنا بان مكنم الداء فيه ، ونعني ان مرض شخصية الدكتور لا يرجع الى حالة طارئة ولكن الى عقدة ما نمت في ظروف محددة ومجتمع ما ، ربما تحرم فيه العقائد البالية افعالا كثيرة منها مثلا منع الطبيب من تشریح الجثث ، وتقف بذلك موقف الضد من اماله وحلمه بتطوير علم الطب ومن ثم يضطر الى العمل في السرحني يصاب بهذه الحالة التي لا تختمل من جنون الوحدة والعزلة .

اما القصة الثانية « الانتقام » فهي تتحدث عن شخصية اخرى تعاني من عقد نقص مركبة تتحول الى انهزامية شديدة ، رجل يكره اخاه الذي من امه فحسب ، لان هذا الاخ كان دائما ينال الافضل ، ويحظى بحب الناس واعجابهم بينما الاخر ينبذ الجميع ، وتتراكم هذه الامور على الاخير الى حد يتمنى فيه قتل اخيه ليثبت جدارته وفكرته على الفعل ، ولكنه لجينه المهود بفشل ، واخيرا يحقق رغبته المكبوتة

ملقيا على تطورها العنصري والتاريخي والاجتماعي قيودا ، هذا التطور الذي لو استغله الكاتب لا بد وان يصب في نهاية حية وربما حتمية ، لان القوى التي تدفع بهذه الشخصية ليست ذاتية ولكنها موضوعية .

لذا جاءت الكلمات في كل هذه المجموعة متوترة تستقط كثيرا في ترهل غير مطلوب .

بعد هذا الاستعراض القصير لبعض قصص المجموعة ، نوجز ملحوظاتنا بثلاث نقاط :

أولا - مما لا شك فيه ان للكاتب مراسا يبشر بطاقة قصصية ، وان كان الكاتب كثيرا ما يتدخل ، ويتسرع ، كحارس ليحد من حرية تنامي الشخصية ويقص عوامل تكوينها .

ثانيا - رغم التوتر الشديد الذي يسود معظم القصص تدهورت كلماتها الى نوع من الجهود القواليبي ، بسبب من فصل الشخصيات عن ماضيها واثاره .

ثالثا - انعكس ذلك على الشكل الفني فلم يستطع الكاتب استنتاج نهايات مقنعة فراح ينهي قصصه في جمل فاترة مختصرة .

هاني الزعبي



العصافير

مجموعة قصص لياسين رفاعية

يقول ياسين رفاعية في مقدمة مجموعته « العصافير » :
« في الفضة القصيرة عليك أن تحشر تجربة برمتها في صفحات معدودات ، وحيانا نأزم قصة قصيرة في مسافة شاسعة من العبارات.»

مع هذا التحديد ، نلج عوالم ياسين رفاعية في « العصافير » فتبدو لنا اقصيصه للوهلة الاولى ، محاولات هرب لاسان هذا العالم اليانس ، من واقعه المادي المتوحش الى عالم اخر من الوهم والعنوية يحقق فيه اماله وامانيه . انها حينئذ الى طفولة بعيدة ، او محاولة بحث عن دنيا اكثر شفافية وصفاء .

وإذ اصيص المجموعة لا تندرج ضمن خط مننام ، وانما نستطيع ان نجعلها ضمن اتجاهات ثلاثة :

1 - الاتجاه الحلمى حيث يستخدم الكاتب الحلم كوسيلة للإبانة عن مشاعر شخصياته المقهورة وامانيهم المكبوتة ، فتمتزج صورة الواقع بتوهم الاحلام ، وهذا المزج يحدث احيانا بطريقة ظاهرة ، وحيانا يتحد العالمان بحيث يصعب عليك التمييز بينهما .

في « رجل يعلم » نرى رجلا متعبا ، يسترخي في ظل سور ليحلم بامنيات طالما رغب في تحقيقها لابنه ولزوجته ، غير ان شاحنة تنحرف عن الطريق العام ، وتقتحم الجدار لتقتلعه ، كان القدر بالمرصاد يسحق الضعفاء ليمنع عنهم حتى نشوة الاحلام ، واتت جملة الكاتب الاخيرة « لكن احلام الرجل استمرت في التدفق » بمثابة تعويض عن قساوة الصدمة

وتدخل اقصوصة « الولد » في التيار ذاته ، فهي عبارة عن صورة لزوجين حرما من الاولاد ، فيحاولان تعويض ذلك باحلامهما ، ويتمثلان الحلم حتى يكاد ان يصبح حقيقة يفجران فيها كل العاطفة والحب والحنان الذي يفتقدانه ، ويعيشان غبطة تكاد تكون حقيقة حتى

بان يطلق النار على اخيه ، بعد ان مات هذا ووروي الثرى . هل نفس هذا الرجل توتره ؟ لا بريننا الكاتب ان نصل الى هذه النتيجة بالطبع ، والا تلاشى معنى القصة ، لقد مر الكاتب على اسباب ودوافع هذه الشخصية مورا سريعا ولبهتا ولم يبلورها في اي حدث يجعلنا نوقن بمكان الملل تماما ، ونقف على شاطئ التساؤل فقط : اهذه العلة ناتجة عن التربية البيئية ام الى فعل الحياة الجبري الذي يتجسد بوجود تزوج الام من رجل آخر غير زوجها ابي ابنها الاول ، في مجتمع ذي علاقات تحدد نوعية واهداف مثل هذا الزواج المنفي؟ اننا لا نسري .

وفي « الحصة والظل » فاحدهم عبد . عبد لمن ، ويخدم من ، القاريه لا يدري ، وربما هو عبد لنفسه ، ينتزعه ويتصيد هو وسيده المدموم السمات ، ويظن ان سيده والموت يجتمعان ضده في الخلاء ، وكل مرة ، اقصد كل دقيقة ، يتمنى هذا الشخص ان يتلاشى كما يتلاشى ظله مع غروب الشمس . هذه الحالة ايضا حالة ازمة ، او على الاصح نهاية لتطور ازمة فقدت عناصرها ولكنها تتناسل من جراد تواجه العبد والسيد ، والحكم فيها يرجع الى نفس هذا العبد ، سواء اكان هو السيد ام العبد ، لان السيد لا يستطيع سوى ان يبقى كما هو سييدا ، بينما العبد يظل عبدا او يثور ليصبح نائرا . . . ولكن لماذا هذه الازمة واين نبتت فروعها وكيف ؟ ان المؤلف يتفانى عن كل هذا ويبدو انه تعب من محاوراة الذات حيث يكتب نيابة عن شخصيته ، مسلا ستارته عليها في آخر القصة ، ثم انكفا على وجهه ، وهو يعانق ظله فوق صخور البحر المسننة . وتظل القصة بلا بداية ولا نهاية حقيقية ، ولا حكم .

اما القصة التي تحمل عنوان المجموعة « دموع السقف الحجري » ، فتتحمسا في تجربة مقلصة لرجل فقد وعيه خلال مشاركته في مظاهرة ، واعتبر ميتا ودفن على الاثر ، وعندما يستعيد هذا الرجل رشده في جوف القبر ، تنهار عليه افكار ثقيلة ، مجزأة ، وبينما تتدافى في عقله الباطني هذه الافكار يكون قد اصبح اقرب الى الجنون والهوس حيث ان راسه مسمر في وضع ما لا يستطيع تحريكه وتتساقط قطرات ماء تتسرب من السقف الحجري على جبهته ، معدنة ارتجاجا ودوبا في ذهنه ، وحين يلفظ انفاسه الاخيرة يتحشرج حلقة بكلمة واحدة . . اغبياء ، وكذلك هنا ندور نحن حول معقل المشكلة دون ان ندخل لنرى مكوناتها ، فلماذا انتهى الرجل الى هذا المصير ، ولماذا مشى في الظاهرة ؟ اننا لا نعرف ، وانصافا للكاتب نقول ان تلك الافكار التي كانت تنبثق من ذاكرة الرجل صيغت باحكام وتمرس ، اننا لم نلمس ان الكاتب قد اقتلعها ، او جرى وراء كلمات يختارها عشوائيا ، اما النهاية فهي روتينية تماما ، وطرقها كتاب كثيرون ، انها بصقعة مهزوم اصطنعها المؤلف ليقول ، ما لا يستطيع قوله بذاته ، على لسان شخصيته .

اما في « الفرسان » وهي اطول قصص المجموعة ويغلب عليها طابع الرمزية الفاقمة ، فاننا نجد ايضا فتاة خائفة ، حاملة مهياة ، بلا اسباب مقبولة ، لان تصاب بفاجعة ، انها معتقلة في ايدي اعداء ، السجنان يشتهي جسدها ويمارس سيادته عليها بجلاهدسا ، تنتظر الخلاص وتحلم بان يأتي الفرسان لانقاذها يوما ما ، وربما يرمز الكاتب هنا بالسجن الى تقاليد المجتمع العربي التي تقيد النصف الآخر ، وربما تمثل الفتاة العربية ارضا عربية سقطت تحت الاحتلال ، ومع ذلك فان الرمز هنا فاقع بشكل لا تنبئ به ، وبعد انتظار طويل يأتي الفرسان ، يفتحون المدينة وياخذون الفتاة التي ظن انها نجت من العار والذل ، ولكن تعود المأساة لتتكرر . . ان عيون الفرسان الفاتحين تتطلع الى جسدها ومحاسنها بنظرات هجسية ثم يهجم عليها احدهم ويفتنصها ويتابع الباقي ما فعله اولهم ، ولكن تظل هي تحلم بفرسان آخرين . . في هذه القصة جهد الكاتب كثيرا لان يسير رموزه كما خطط لها مسبقا ، ووضعها في اطار جاهز

يتصبا ، فيرجعا من جديد الى حزنهما القديم .

اما في « زهرة البنفسج » فنتهدم الحواجز بين الواقع والحلم لترسم لنا مأساة عانس في الثلاثين من العمر ، لم تعرف معنى الحب ، فتجد في الاحلام خلاصا لها من غربتها ، وملاذا لها من صقيع حياتها وقطعها . وما الربيع في الاقصوصة سوى رمز للخصب ، هذا الخصب الذي طالما تاقت اليه وعجزت عن تحقيقه ، فعاثت في الوهم وماتت فيه . ولم يعرف الناس الحقيقة الا بان جثة فتاة وجدت على سطح مياه النهر ، وما البنفسجة التي ظلت عالقة في شهرها سوى رمز لتوهج طلب الحياة الذي لم يمت بموت الفتاة . والاقصوصة بمجملها طرح شاعري شفاف لوحدة فتاة ، وبحثها عن افق تفجر فيه كتبها وحرمانها ، فلا تجد سوى الاحلام ملجأ .

و « حوار مع الورد الابيض » اقصوصة من نفس نوع الاولى ، اذ تطرح مشكلة خلافات الزوج وانعكاسها على الاطفال . فيروح الطفل يبحث عن مخرج لانقاذ والدته التي يحبها ، ووالده الذي يقسو عليها ، ويأتي الحل مفلتا برؤيا سحرية ، فتستطيع وردة بيضاء ان تعيد النضارة للزوجية والحنان الى قلب الزوج ..

ولقد جمعت « نجمة الصباح » الى جانب هذه الرؤبة السحرية حسا جديدا بالواقع . ومن خلال تقاطع هذين الخطين يطرح الكاتب اشد قضايا الانسان تعقيدا ، وهي الموت .

طفل يتساءل عن والده الذي مات منذ زمن ، وأم تداري الحقيقة باوهام ، تحاول من خلالها ان تخفف من قساوة الواقع .

غير ان الطفل يعيش الوهم ويندو معه ، فيحلم بابيه وفد عساد واشترى له ما يشتهي ، وكما قالت له امه ان والده سافر الى نجمة مضيئة بعدما مل حياة الارض ، فهو يجلس بانتظاره كل مساء ليشهد في ليله موت الحلم اذ شاهد النجمة تحترق وتهوي ، فايقن ان اياه لن يرجع بعد اليوم .

اما « العصفير » فهي مقطوعات يرجع تاريخ كتابتها الى فترات زمنية متباعدة ، تمتد من عام ١٩٦٣ حتى ١٩٧٤ ، وعبرها ينقلنا الكاتب الى عوالم جديدة ، عالم العصفير (او الحرية والعودة الى منابع الفطرة في الحياة) وعالم الطفولة (عالم البراءة والعذوبة والحب الطلق) ، الى جانبها عالم المدينة الذي يفرسهما شيئا فشيئا عبر المقطوعات السبع ، فنشهد كيف يحبط عالم المدينة طفولة الاشياء ، وكيف يقيدها ، ويعمل على اسلابها حتى يعزلها وينقصي عليها (الصورة الاخيرة لعصفور طريد الشتاء يحاول الدخول الى غرفة دافئة فيها رجل وامرأة داخلها ، « حاول العصفور ان يلفت نظر الرجل والمرأة ، فنشبت بطرف النافذة واخذ يرفرف بجناحيه البليئين ، تطلعا اليه هنيهة ، ثم عادا يتابعان الحديث فيما بينهما دون ان يتحركا » .)

انها شهادة لاحتضار البراءة والعذوبة في مجتمع هذا اليوم ، وهي باختصار مسيرة عذاب الانسان في عالم المادة . انه الحنين الجارف الى عالم الصفاء حيث لا قيود ولا عذاب انما حرية مطلقة وصفاء مطلق .

يتميز أسلوب الكاتب في اقصيصه هذه بالشاعرية الرقيقة . يقول في « زهرة البنفسج » : « فز العصفور فتساقط عليه ورق الزهر كندف من الثلج . كانت الحقول تموج ، وكان الربيع يزرع قلبه في كل شجرة طرية لكن صمنا حزينا لف العالم من كل جوانبه » .

والشاعرية رديف اساسي لعالم الحلم الذي يعبر عنه ياسين رفاعية الذي هو عالم رمز بعيد عن الفرابية ، وعندما يغمض الرمز ، يحاول الكاتب توضيحه دون ان يقع في التفصيل ، والسرد الاخباري . فكانت

اقاصيصه رؤى عذبة تستثير عاطفتك وخيالك دون ان تتحداهما .

٢ - اما الاتجاه الثاني لاقاصيص المجموعة فهو اتجاه الطرح الحاد شبه الملتزم بمعضلات الانسان الاولى . الفقر ، الجوع ، العنف . لذا اختلفت الرؤبة في « رباعية الجوع » وانحصرت الشعاعية الشغافة امام وطأة الاحساس الحاد بوطأة الحياة وظلم الظروف الاجتماعية ، وتحكم القوة والاستغلال بمصائر الضعفاء .

وفي اقصيص الرباعية « الله والسمة » و « المارد » عودة واضحة الى عالم الاسطورة في الف ليلة وليلة . فاولاد الفقراء يدعون الله ان يبعث اليهم برزق ، فيقذف البحر لهم بسمة كبيرة ، لا يلبث ان يسطو عليها بعض اللصوص ، ليرتكو الاولاد في حيرة وذهول . اما مارد الفانوس فيرفض في « المارد » الاستجابة لطفل جائع كل ما يريده الحصول على رغيف خبز فيحرق نفسه . فالاسطورة هنا مفجعة لا تحقق اماني المحرومين ، ولا تعوض عن حرمانهم ، انما تزيد الشقة والتناقض فيما بينهم وبين الحياة .

اما في اقصوصة « ابو ذر الففاري » (والشخصية مشهورة في التاريخ الاسلامي علينا ان نكشف عن رمزها الخفي) نشهد حماية المجنون للجانح ضد عالم الاقوياء .

اما في « الكلب » فتنجسد قصة الصراع الطبقي ، وتتباور المأساة في اوجها : كلاب تاكل حتى النخمة ، وطفل يشتهي ان يكون كلبا كي يحظى بلقمة تسد جوعه ، وفي الاقصوصة احساس حاد بالمأساة ، وطرح شبه مأساوي للظلم الاجتماعي والنهر الذي يحول الانسان حيوانا يبحث بلا جدوى عن شيء يشبع جوعه والله .

مع هذه الاقصيص تبرز خاصية جديدة للكاتب ، ففي « رباعية الجوع » يتحدث الشاعر بلسان المذنبين ، ويرسم الامهم بصدق وواقعية ، تجعل من عالم اقصيصه عالما كابوسيا .

وهو يصور فيها الشقة المظلمة من وجه الحياة ، والآهة المكبوتة في نفوس الكثيرين ، يفجرها في كلماته ، لكنه لا يجد لها املا بالخلاص ولو ضئيلا ، جميع شخوص رباعيته يستحقهم الجوع ، ينتصر عليهم الشر ، ونقصي عليهم كلاب الاغنياء . وربما التزام الكاتب الكامل للحقيقة الماتلة جملة غير قادر على تحطيم قيود المعجز ، وفتح ابواب جديدة للخلاص . وبكلمة موجزة تنهض « رباعية الجوع » لتصل الى مستوى رفيع من الاداء الفني .

٣ - اما الاتجاه الثالث الاخير فهو اتجاه نقل الواقع والسرد الاخباري المباشر ، ويقع في هذا المضمار ما تبقى من اقصيص المجموعة ، وهو يكشف لنا عن مزبة هامة لدى ياسين رفاعية ، الا وهي اخلاصه للواقعية . ويبرز من بين هذه الاقصيص « الحصاة » وهي تحمسل حنين الكاتب الدفين الى موطنه دمشق ، والى ذكريات ما زالت حية في روحه . والثانية « الموت » وفيها يحاول نقل لحظة احتضار ميت ، تحمل امنية خفية اراد الكشف عنها ، وتفني هذه الاقصوصة احساسا من التوتر الحاد الفاض ، وتكشف عن قدرة الكاتب على تمثيل ما هو سريع وعارض (لحظة الموت) في هذا الشكل المتناسي من النقل التوتير .

وياسين رفاعية في اقصيصه هذه ، يقتررب كثيرا من عالم زكريا تامر ، غير ان الاحلام مع زكريا تامر تنقلب الى رؤبة كابوسية حادة ، لتكشف عبث الحياة ووحدة الانسان وغربته في هذا العالم .

غير ان الكاتبين يلتقيان في الرموز الطفولية الاحداث فيشكلان في هذا المجال مدرسة جديدة للقصة تنطلق من الواقع نحو اللاواقع في محاولة لطرح جديد لانسان شرقنا ولشاكل حاضره .
رندة حيدر